

نحو إطار إدراكي رمزي لفهم تجربة المكان

Toward a Cognitive-Symbolic Framework for Understanding Place Experience

تاريخ النشر: 2026/06/12

تاريخ القبول: 2026/05/09

تاريخ الإرسال: 2026/01/09

عبد الحكيم زيدي¹EMAIL : zidi.abdelhakim.1@gmail.com ، جامعة ورقلة ، الجزائر¹

ORCID0000-0001-5217-8001 +

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بناء إطار تحليلي لفهم العلاقة بين الإنسان والمكان، انطلاقاً من محدودية المقاربات التقليدية في تحليل الأبعاد غير المادية للفضاء. ويعتمد البحث مقارنة متعددة التخصصات تسعى إلى دمج الإدراك المكاني بالرمزية الثقافية ضمن تصور إدراكي رمزي لفهم التجربة المكانية. ويبيّن أن هذا الإطار النظري يتيح تحليلاً أعمق للتجارب الشعورية المرتبطة بالمكان، كالانتماء والاغتراب الحضري، من خلال ربط الأبعاد الإدراكية والانفعالية والرمزية في نموذج تفسيري متكامل. كما يفتح هذا الطرح آفاقاً لإعادة التفكير في تحليل الفضاءات الحضرية ضمن مقاربات سوسيولوجية وثقافية متعددة. الكلمات المفتاحية: الإدراك المكاني، الرمزية الثقافية، التجربة المكانية، علم الاجتماع المكاني.

المؤلف المرسل: عبد الحكيم زيدي، الإيميل: zidi.abdelhakim.1@gmail.com

Abstract:

This study aims to develop an analytical framework for understanding the relationship between humans and place, based on the limitations of traditional approaches in addressing the non-material dimensions of space. It adopts an interdisciplinary perspective that seeks to integrate spatial perception and cultural symbolism within a cognitive-symbolic framework for understanding place experience.

The study shows that this theoretical framework enables a deeper analysis of affective experiences related to place, such as spatial belonging and urban alienation, by linking perceptual, emotional, and symbolic dimensions within an integrated interpretive model. It also opens up new perspectives for rethinking the analysis of urban spaces within diverse sociological and cultural approaches.

Keywords : spatial perception, cultural symbolism, place experience, spatial sociology.

1. مقدمة:

في سياق التحولات المعرفية التي شهدتها العلوم المكانية، لم تعد العلاقة بين الإنسان والمكان قابلة للاختزال في المعطيات الفيزيائية أو الوظيفية وحدها. فعلى الرغم من التطور الكبير الذي عرفته نظم المعلومات الجغرافية على المستويين النظري والتطبيقي (Longley, Goodchild, Maguire, & Rhind, 2015)، والتحليل المكاني الكمي (Fotheringham, Brunson, & Charlton, 2000)، ظلّ البعد العاطفي والإدراكي للمكان هامشيًا في نماذج التحليل التقليدية (Tuan, 1974, 1977 ; Montello, 2001) و يرتبط هذا الإهمال النسبي بهيمنة المقاربات الهندسية الوضعية، التي درجت على اعتبار المكان وعاءً محايدًا للأنشطة البشرية، متجاهلة بذلك التعقيد المعرفي الرمزي الذي يتخلل التجربة المكانية (Seamon, 2014)، وهو ما انتقده فوكو في تصوره للفضاء كبنية معرفية وسلطوية يُعاد إنتاجها عبر آليات الخطاب والممارسة (Foucault, 1984).

شهدت الدراسات اللاحقة اهتمامًا متزايدًا بالأبعاد الشعورية والمعنوية للمكان، من خلال مقاربات ظاهراتية وتأملية، من أبرزها أعمال باشلار التي تناولت البعد الحلي للفضاء المنزلي (Bachelard, 1958)، وتوان الذي قدّم إطارًا نظريًا لمفهوم حبّ المكان (Topophilia) بوصفه تعبيرًا شعوريًا مركّبًا عن الارتباط بالمكان (Tuan, 1977)، وريلف الذي تناول ظاهرة الاغتراب المكاني كفقْدان للصلة الشعورية بالمكان (Relph, 1976)، وجولدهاغن التي حللت أثر البيئة المبنية على الإدراك العصبي الحسي استنادًا إلى معطيات علم الأعصاب الإدراكي (Goldhagen, 2017). ومع أهمية هذه الإسهامات النوعية، إلا أن المتأمل فيها يلاحظ أنها بقيت رهينة تناول أحادي الجانب لأبعاد التجربة المكانية، دون بناء إطار تركيبي يتناول تفاعل الإدراك الحسي مع الرمزية الثقافية والذاكرة الجمعية كوحدة ديناميكية متكاملة، وهو ما يتقاطع مع نقد دريدا لفكرة المعنى المستقر وإبراز الطابع اللانهائي للإرجاء الدلالي داخل شبكة العلامات (Derrida, 1967). وقد يكون هذا القصور نتيجة طبيعية لطبيعة المناهج التخصصية الصارمة التي حكمت مقاربات تلك الدراسات.

تنبثق هذه الدراسة من إشكالية مركزية مفادها: كيف يمكن بناء إطار إدراكي رمزي قادر على تفسير الطابع المركّب للتجربة المكانية في ظل تداخل الأبعاد الحسية والرمزية والانفعالية؟

ويتفرع عن هذا التساؤل عدد من الإشكالات الفرعية المرتبطة بطبيعة التفاعل بين هذه المستويات: كيف تؤثر الرمزية العمرانية في تشكيل الانتماء الحضري؟ وما العلاقة بين الإدراك الحسي والذاكرة المكانية؟ وإلى أي مدى تختلف الاستجابات الشعورية للأفراد بين الفضاءات التاريخية والحديثة؟

وتستند الدراسة إلى تقاطع الجغرافيا السلوكية، وعلم النفس الجغرافي البيئي، والدراسات الرمزية، مع الاستفادة من تطورات علم الأعصاب المعماري كما عرضها جون بول ابرهارد (Eberhard, 2009). وتسعى، في هذا الإطار، إلى تقديم إضافة نظرية من خلال بناء إطار تحليلي قادر على استيعاب الطابع الشعوري الرمزي للعلاقة بالمكان، بما قد يفتح آفاقًا جديدة لفهم تأثير التفاعلات الإدراكية والثقافية في تشكيل التجربة المكانية، بانسجام مع تصور رولان بارت للثقافة كنظام أسطوري يعيد إنتاج المعنى داخل البنى الرمزية اليومية

(Barthes, 1957). وقد تسهم النتائج لاحقاً في مجالات التخطيط الحضري، وتصميم البيئات المعمارية، فضلاً عن إثراء الدراسات الثقافية.

انطلاقاً من هذه الفجوة المعرفية، تقترح هذه الدراسة إطاراً إدراكياً رمزياً لتحليل المكان بوصفه تصوراً نظرياً تركيبياً يدمج بين الرمزية الثقافية والإدراك العصبي الحسي، بهدف بناء مقارنة أكثر شمولاً لفهم العلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان. ولا ينظر هذا الإطار إلى المكان بوصفه مجرد بنية مادية، بل باعتباره بنية معرفية رمزية تتشكل عبر التفاعل اللاواعي والثقافي مع البيئة. ويقوم على أربعة مكونات تحليلية رئيسية: الإدراك العصبي الحسي، الرمزية الثقافية، الإدراك العاطفي الحدسي، والذاكرة المكانية المترابطة.

وانطلاقاً من ذلك، تفترض الدراسة أن النماذج التحليلية التقليدية تعجز عن استيعاب الطابع المركّب للتجربة المكانية، لكونها تفصل بين الأبعاد الحسية والرمزية والانفعالية. وتهدف إلى استكشاف إمكانية بناء إطار تحليلي تركيب يدمج هذه المستويات ضمن مقارنة واحدة. وتعتمد الدراسة مقارنة نظرية تحليلية ذات طبيعة متعددة التخصصات، تقوم على تحليل نقدي للأدبيات وتفكيك المفاهيم المكانية السائدة، وصولاً إلى اقتراح إطار تحليلي لفهم العلاقة بين الإنسان والمكان.

2. مراجعة الأدبيات العلمية السابقة

1.2. الجذور الفلسفية والمعرفية لتحليل العلاقة بالمكان: الخلفية النظرية وحدودها المفاهيمية

تُعد العلاقة بين الإنسان والمكان إحدى القضايا المفصلية في الفكر الفلسفي والمعرفي، وقد خضعت لتأويلات متباينة تعكس اختلاف الخلفيات المعرفية والسياقات التاريخية لمقاربتها. في الفلسفة اليونانية، طُرِحَ المكان بوصفه حيزاً موضوعياً وثابتاً؛ وله وجود واقعي يُدرك من خلال علاقة الاحتواء، دون أن يُعتبر كياناً مطلقاً مستقلاً عن الأشياء أو عن الإدراك (Aristotle, Physics IV.4; Hussey, 1983). في المقابل، تبنّى أفلاطون تصوراً مغايراً من خلال ربط المكان بعالم المُثُل، مانحاً الفضاء بعداً رمزياً مفارقاً للمحسوس، باعتباره

وسيطاً بين عالم الصور المثالية والعالم المتغير (Plato, Timaeus). وعلى الرغم من اتساق هذه التصورات مع المنطق الميتافيزيقي لعصرها، إلا أنها ظلت عاجزة عن تفسير أبعاد التجربة المكانية في ارتباطها بالإدراك الذاتي والشعور الإنساني.

شهدت الفلسفة الحديثة تحولاً نوعياً مع نشوء الظاهراتية، التي رفضت الفصل الصارم بين الذات والموضوع. فقد أرسى إدموند هوسرل أساساً مفهوماً جديداً لتجربة المكان من خلال التأكيد على البنية الإدراكية للوعي، معتبراً أن المعنى المكاني لا يُستنبط من الخصائص الفيزيائية وحدها، بل يتولد عبر قصدية الوعي وتفاعله مع الظواهر (Husserl, 1983). وقد عمّق مارتن هايدغر هذا المنظور في كتابه الكينونة والزمان، حيث بيّن أن المكان ليس حيزاً محايداً، بل مجال وجودي يتجلى فيه كينونة الإنسان عبر ما أسماه بـ«الكينونة في العالم» (Dasein)، رافضاً بذلك التصور الكلاسيكي للمكان كخلفية ثابتة للوجود (Heidegger, 1962).

ومع أن هذا التحول الظاهراتي أرسى فهماً نوعياً لأبعاد المكان بوصفه تجربة معاشة، إلا أن الطابع الفردي لهذه المقاربة، وتجاهلها النسبي للعوامل الثقافية والاجتماعية، حدّ من قدرتها على تفسير أنماط الانتماء المكاني المشترك، أو استيعاب الديناميكيات الرمزية للجماعة ضمن الفضاء.

في منتصف القرن العشرين، وسّع غاستون باشلار هذه الرؤية من خلال تحليل الفضاءات الداخلية ذات الطابع الحميمي. في كتابه جماليات المكان، أظهر كيف تتجلى الأماكن في الوعي عبر صور شعورية ترتبط بالذاكرة والخيال، مؤسساً بذلك نموذجاً رمزياً شعورياً لتجربة المكان (Bachelard, 1958). وعلى الرغم من تفرد طرحه في تتبع الرموز المكانية، إلا أن دراسته بقيت مقصورة على نماذج محددة من الفضاءات، خصوصاً البيت، ولم تقدم إطاراً نظرياً قابلاً للتعميم على التجربة المكانية في تنوعها الثقافي والاجتماعي.

في مراجعة نقدية للظاهراتية التقليدية، قدّم إدوارد كايسي مقاربة أكثر عمقاً لتجربة المكان، من خلال ربطها بمفهوم الذاكرة المجسّدة. ففي كتابه Getting Back into Place

(1993)، يُعيد كايسي تعريف العلاقة بين الإنسان والمكان على أساس التراكم الزمني والتجربة الحسية المتجذرة في الجسد، مؤكداً أن الارتباط المكاني لا يُختزل في اللحظة الإدراكية، بل يُبنى عبر استحضار متكرر للتجارب السابقة وتداخلها مع الحاضر. وبهذا المعنى، تصبح الذاكرة وسيلة لفهم المكان لا كموقع مادي، بل كبنية زمانية شعورية تشارك فيها الحواس، الرموز، وتاريخية التجربة. وقد مثل هذا الطرح تطوراً نوعياً في التفكير الجغرافي الظاهراتي، إذ تجاوز النزعة الفردية لصالح قراءة أكثر تركيباً تتقاطع فيها الذات، الجسد، والذاكرة ضمن إطار إدراكي متجذر.

على الرغم من الطابع التأويلي الذي وسم المقاربات الظاهراتية، إلا أن منتصف القرن العشرين شهد بروز اتجاه معرفي جديد تمثل في البنيوية والسيمائية، اللتين سعتا إلى تجاوز الطابع الفردي للوعي الظاهراتي عبر التركيز على البنى الموضوعية التي تنظم إنتاج المعنى داخل المجتمعات. فقد انطلق فرديناند دي سوسير من تحليل البنية اللغوية بوصفها نسقاً من العلاقات بين الدال والمدلول (Saussure, 1959)، مشدداً على أن المعنى لا يتولد من الأشياء في ذاتها، بل من العلاقات الفارقة بين العلامات ضمن نظام دلالي مغلق. وقد طور كلود ليفي ستروس هذه الفكرة في مجال الأنثروبولوجيا، مبيناً أن الأساطير وأنماط القرابة والطقوس الاجتماعية تقوم على بنى ذهنية عميقة وثابتة تشترك فيها المجتمعات البشرية، بغض النظر عن اختلاف ثقافتها الظاهرية (Lévi-Strauss, 1958).

وتوسّعت هذه الرؤية البنيوية مع رولان بارت، الذي بيّن أن الثقافة الحديثة يمكن قراءتها كسلسلة من النصوص والعلامات المنظمة ضمن أنظمة دلالية معقدة (Barthes, 1964)، مما فتح المجال أمام دراسة الفضاءات المعمارية والعمرانية كأساق رمزية منتجة للمعنى. وفي هذا السياق، جاءت السيمائية، بوصفها العلم الذي يدرس أنظمة العلامات ويتقصى آليات إنتاج المعنى وتداوله، لتوفّر أدوات تحليلية دقيقة لقراءة الفضاءات بوصفها نصوصاً ثقافية محمّلة بالرموز والدلالات الجماعية.

ومن هذا المنظور، لم يعد المكان يُفهم فقط بوصفه إطاراً فيزيائياً أو تجربة شعورية معاشة، بل بات يُقارب كبنية دلالية معقدة تخضع لنظام من العلاقات الرمزية والثقافية.

وقد أسهم هذا التحول البنيوي السيميائي في توسيع مقاربة المكان نحو أفق نسقي، ممهّداً الطريق لظهور اتجاهات لاحقة ستسعى إلى دمج التحليل الرمزي بالإدراك الشعوري والبيولوجي، كما ستبرز محدوديته لاحقاً عند تقييم قدرة هذه المقاربات على استيعاب الطابع الطبقي الزمني للعلاقة بالمكان.

في سياق التحول من المقاربات الظاهرية إلى التحليل البنيوي والنقدي للفضاء، قدّم هنري لوفيفر في كتابه *The Production of Space* (1974) طرحاً جذرياً مفاده أن الفضاء ليس معطىً طبيعياً أو حيّزاً محايداً، بل نتاج اجتماعي يتشكّل من خلال تفاعلات القوة، الاقتصاد، والثقافة. يرى لوفيفر أن الفضاء يُنتج عبر ثلاثية مترابطة: الفضاء المدرك (perceived)، الفضاء المتخيّل (conceived)، والفضاء المعاش (lived)، وهي عناصر تتداخل لتنتج معاني معقدة تتجاوز الإدراك الحسي أو الاستخدام الوظيفي. وقد أسهمت هذه المقاربة في توسيع دائرة فهم المكان لتشمل البنية الاجتماعية الرمزية التي تحكم تنظيمه ودلالاته، ممهّدة بذلك لتحليلات أكثر تركيباً للعلاقة بين الإنسان والفضاء، كما في الجغرافيا النقدية المعاصرة.

بالتوازي مع ذلك، ظهرت الجغرافيا السلوكية في العقود اللاحقة كمحاولة لربط المكان بالسلوك الإنساني من خلال مقاربة تجريبية. ركزت أعمال كيفن لينش على التمثيلات الذهنية للفضاء الحضري، مبرزاً كيف تُبنى صورة المدينة في الوعي عبر عناصر شكلية مميزة كالحدود والمعالم والمحاور (Lynch, 1960). وقد ساهمت هذه المقاربة في إدخال أدوات القياس والتحليل النفسي المكاني إلى حقل الجغرافيا، إلا أنها ركزت أساساً على الإدراك الواعي والتمثيلات البصرية، مغفلة الأبعاد الرمزية والانفعالية للتجربة المكانية.

في تطور لاحق، قدمت الجغرافيا المعرفية مفاهيم مثل «الخرائط الذهنية» و«النماذج الإدراكية»، وسعت إلى تفسير كيفية تنظيم الأفراد للمكان في أذهانهم. غير أن الطابع الاختزالي الذي اتسمت به، من خلال حصر الإدراك في بنيات معرفية صورية، لم يسمح لها بالتعامل مع الأبعاد الرمزية والثقافية للفضاء.

برز علم الأعصاب المعماري في العقدين الأخيرين بوصفه فرعاً ناشئاً يسعى إلى فهم الأثر البيولوجي للفضاء المبني على الدماغ البشري. فقد بيّنت أبحاث جون بول إبرهارد وساره ويليامز جولدهاغن أن الإدراك المعماري لا يُختزل في التفاعل البصري، بل يتضمن تنشيطاً عصبياً يرتبط بالانتباه، والعاطفة، والذاكرة، ويؤثر في تقييم الأمان أو التهديد داخل الفضاء (Eberhard, 2009; Goldhagen, 2017). ورغم أهمية هذه النتائج في دعم فرضية أن العلاقة بالمكان ذات أساس عصبي شعوري، إلا أن توظيفها ظل غالباً ذا منحنى وصفي، دون بلورة نظرية متكاملة تُدخل الرمزية الثقافية في صلب التحليل العصبي.

استكمالاً لهذه التطورات، تعززت في السنوات الأخيرة مقاربات جديدة تربط بين الإدراك الحسي والرمزية الثقافية. فقد اقترحت دراسات مثل أبحاث سيباستيان كاكوار وآمي غريفين فكرة «الخرائط الانفعالية» (Caquard & Griffin, 2019)، التي تهدف إلى تمثيل العلاقة الشعورية بالفضاءات عبر أدوات كارتوغرافية جديدة تراعي الانفعالات المرتبطة بالأماكن. كما تناولت بعض الدراسات الحديثة أهمية الذاكرة الجمعية في تفسير أنماط الارتباط المكاني، باعتبارها آلية رمزية لتراكم المعنى عبر التجربة الجماعية. غير أن الاختصار على هذا البعد، دون دمج المستويات الطبقيّة الزمنية والأنماط الانفعالية المتراكمة، يظل عاجزاً عن تقديم تفسير تركيبي شامل للعلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان، كما سيتضح لاحقاً في نقد النماذج التقليدية.

2.2. محدودية النماذج التقليدية وحاجة البحث إلى مقارنة تركيبية متعددة المستويات على الرغم من التراكم النظري الغزير الذي شهدته مقاربات فهم العلاقة بين الإنسان والمكان، فإن العديد من النماذج المتداولة تُظهر محدودية منهجية في استيعاب الطابع المركّب للتجربة المكانية، خاصة فيما يتعلّق بتفاعل الطبقات الشعورية، الرمزية، والزمنية في تشكيل الانتماء المكاني. ويكمن هذا القصور تحديداً في ميل أغلب المقاربات إلى التركيز على مستوى تحليلي واحد، سواء الإدراكي أو الرمزي أو الاجتماعي دون السعي إلى بناء إطار تركيبي قادر على استيعاب تعدّد الأبعاد وتشابكها.

في هذا السياق، يُلاحظ أن النماذج ذات الطابع الظاهراتي، رغم انتقالها من المكان بوصفه حيزاً فيزيائياً إلى اعتباره تجربة معاشة، انحصرت في تحليل الشعور الفردي في لحظة الإدراك، متجاهلة الامتدادات الرمزية والاجتماعية التي تسبق هذا الشعور وتؤطره. أما المقاربات البنيوية والسيمائية، فرغم ما قدّمته من أدوات لتحليل البنى الدلالية للمكان، فقد نزعت إلى فصل الرمز عن الجسد، والدلالة عن الإدراك الحسي، مما حدّ من قدرتها على استيعاب الأثر الحيوي للفضاء في تشكيل الانفعالات واستدعاء الذاكرة المتجسدة. وقد ساهم هذا الفصل التحليلي الصارم في تعميق الفجوة بين التحليل النظري للتجربة المكانية وتمثلاتها المعاشة، التي تتأسس بطبيعتها على تراكم حسي رمزي يصعب تفكيكه إلى عناصر منفصلة.

من ناحية أخرى، فإن النماذج السلوكية والمعرفية، رغم تقديمها أدوات مهمة لدراسة التمثيلات الذهنية للفضاء، انطلقت من افتراض أن الإدراك المكاني عملية واعية ومنظمة وقابلة للقياس، ما جعلها تُغفل الأثر العاطفي والطبقات التاريخية غير المرئية التي تُضفي على المكان طاقته الشعورية الخاصة. كما أن اعتمادها على المدخل التجريبي الصرف قد حدّ من قدرتها على التعامل مع الديناميكيات الرمزية المتغيرة عبر الثقافات والسياقات.

أما الإسهامات المعاصرة المستندة إلى علوم الأعصاب، فقد بدأت تكشف عن صيغ جديدة لتحليل العلاقة بالمكان من خلال دراسة الاستجابات العصبية للمثيرات المكانية، خاصة في الفضاءات المعمارية. إلا أن هذه المقاربات، وإن كانت واعدة في كشف آليات الاستقبال العصبي للفضاء، لا تزال في الغالب ذات طابع وصفي، ولم تنجح بعد في بناء نموذج تحليلي قادر على ربط هذه النتائج بالبنى الثقافية والاجتماعية التي تُنتج المعنى المكاني وتُعيد تشكيله.

إلى جانب ذلك، برزت في السنوات الأخيرة محاولات لتجسير العلاقة بين الإدراك والانفعال عبر ما يُعرف بالخرائط الشعورية والانفعالية، وهي مقاربات رائدة في سعيها إلى تمثيل التفاعل العاطفي المكاني. غير أن هذه الجهود، على أهميتها، لا تزال محدودة من حيث قدرتها على إدماج الأبعاد التكوينية للرمز والذاكرة، الأمر الذي يُضعف قدرتها على تفسير

تشكّل ما يمكن تسميته بـ "البعد الوجداني للمكان"، باعتباره نتاجاً تراكمياً لتفاعل الرمز، والذاكرة، والانفعال ضمن سياقات اجتماعية وثقافية متحوّلة.

وفي سياق النقاشات الراهنة، برزت مفاهيم جديدة تسعى إلى تعميق فهم العلاقة بين الإنسان والمكان، كالهوية المكانية (Spatial Identity) التي تُحيل إلى تشكّل إحساس الفرد بالانتماء من خلال تفاعله مع الفضاء (Proshansky et al., 1983)، والانفعالات الحضرية (Urban Emotions) التي تدرس الأبعاد الشعورية المرتبطة بالتجربة الحضرية (Pile, 2010; Thrift, 2008)، والفضاء المتجسد (Embodied Space) الذي يركّز على دور الجسد في إدراك المكان (Merleau-Ponty, 1962)، والعمران الانفعالي (Affective Urbanism) الذي يسعى إلى فهم العلاقة بين التشكيل العمراني والاستجابات العاطفية للأفراد (Anderson, 2009).

غير أن هذه المقاربات، رغم أهميتها، لا تزال تشتغل في الغالب ضمن مستويات تحليلية منفصلة، ولا ترقى إلى بناء إطار تركيبي قادر على دمج هذه الأبعاد ضمن نسق تفسيري موحد.

وفي امتداد لهذا النقد، يمكن استحضار إسهام بيار بورديو في فهم الرمزية بوصفها بنية اجتماعية متجذّرة في الممارسة، حيث لا تُختزل الرموز في بعدها الدلالي الظاهر، بل تعبّر عن علاقات قوة وآليات لإعادة إنتاج المعنى داخل الحقول الاجتماعية (Bourdieu, 1991). ومن هذا المنظور، تغدو الرمزية المكانية جزءاً من نسق اجتماعي ثقافي أوسع، يتجاوز الإدراك الفردي ليشمل البُنى الرمزية التي تؤطر الفعل والممارسة داخل الفضاء.

ومن زاوية إبستمولوجية، يمكن تفسير محدودية المقاربات التقليدية في ضوء مفهوم "العائق الإبستمولوجي" عند غاستون باشلار، حيث تسهم النماذج الفكرية السائدة في تكريس تصورات اختزالية تعيق بناء فهم تركيبي للظواهر المعقدة (Bachelard, 1938). وبذلك، فإن تجاوز هذه العوائق يقتضي إعادة النظر في الأسس المعرفية التي قامت عليها تلك النماذج، والانفتاح على مقاربات متعددة المستويات قادرة على استيعاب التداخل بين الإدراك، الرمزية، والانفعال في التجربة المكانية.

إن المشترك بين هذه النماذج جميعاً هو اعتمادها على تحليل أحادي البعد، أو انخراطها في مقاربات تقنية أو فلسفية تعجز عن دمج المعطيات العصبية الحسية بالتمثيلات الرمزية والانفعالية في نسق تفسيري جامع. وهو ما يُبرز الحاجة الملحة اليوم إلى تصور تحليلي بديل يعيد التفكير في العلاقة بين الإنسان والمكان، من منظور يراعي هذا التشابك البنيوي بين الإدراك والانفعال، الحواس والرموز، والذاكرة والمعنى.

ولا تدعي هذه الدراسة القطعية مع ما سبق من اجتهادات نظرية، بل تسعى إلى تطوير أفق تركيبى جديد يُعيد موضوعة الإنسان بوصفه كائنًا إدراكيًا رمزيًا، يعيش المكان لا فقط كحيز مادي، بل كبنية رمزية شعورية متراكبة، يتقاطع فيها الإدراك الحسي بالانتماء والذاكرة والمعنى.

وفي ضوء هذا التشخيص النقدي لمحدودية النماذج التقليدية، يأتي الفصل التالي ليقترح إطارًا تحليليًا يتجاوز التجزئة المعرفية السائدة، ويقدم مقاربة إدراكية رمزية متعددة المستويات، تسعى إلى تفكيك بنية التجربة المكانية، ومساءلة أنماط الانجذاب والاعترا ب والانتماء، انطلاقًا من تفاعل الطبقات الحسية، الثقافية، والزمانية التي تؤطر العلاقة بين الإنسان والمكان.

3. الإطار النظري للمقاربة الإدراكية الرمزية لتحليل المكان

1. تعريف الإطار الإدراكي الرمزي ومميزاته مقارنة بالمقاربات السابقة

ينطلق الإطار الإدراكي الرمزي لتحليل المكان من فرضية تأسيسية مفادها أن العلاقة بين الإنسان والمكان تتجاوز ثنائية الإدراك الحسي والتمثل الرمزي، لتتجسد كبنية ديناميكية تتداخل فيها الاستجابات العصبية الحسية، والرموز الثقافية، والذاكرة الجمعية، والتجربة الشعورية العميقة، ضمن سياق تراكمي يضم الأبعاد الفردية والجماعية، الواعية واللاواعية، والمحسوسة والمتخيلة.

وينظر هذا الإطار إلى الإنسان لا كذات إدراكية معرفية محضة، بل ككائن إدراكي رمزي شعوري، تتداخل في تجربته المكانية استجابات حسية عصبية، ورمزية ثقافية، وانفعالية شعورية، وذاكرة جماعية، في إطار ديناميكي متعدد المستويات.

كما لا ينظر هذا الإطار إلى المكان بوصفه حيزاً فيزيائياً مستقلاً أو مجرد فضاء للاستعمال الوظيفي، بل باعتباره شبكة معرفية رمزية تتشكل من خلال تفاعل الحواس والرموز والذاكرة المكانية المتراكمة المرتبطة بالمادة المكانية. ويمثل هذا التصور تجاوزاً للمقاربات الاختزالية التي عالجت المكان إما كبنية مادية أو كدلالة ثقافية مفصولة عن التجربة الإدراكية المتجسدة.

ويتّميز الإطار الإدراكي الرمزي بخصائص تجعله إطاراً تركيبياً متعدد المستويات، يتجاوز المقاربات السابقة التي انحصرت إمّا في تحليل أحادي البعد، أو في فصل منهجي بين الإدراك الحسي والرمزية والذاكرة.

وتتجلى هذه الخصائص في النقاط التالية، بما يبرز كيفية تجاوز هذا الإطار لأوجه القصور في النماذج السابقة:

1. "البعد التركيبي المتعدد المستويات": يجمع هذا الإطار بين الطبقات العصبية الحسية، الرمزية الثقافية، الشعورية الانفعالية، والذاكرة المكانية، داخل بنية تحليلية موحدة، متجاوزاً الاقتصار على مستوى واحد كما في المقاربات الظاهرانية أو البنيوية أو المعرفية السلوكية.
2. "دمج الإدراك الحسي العصبي بالرمزية الثقافية والذاكرة الجمعية": يقدم الإطار وحدة تحليلية تربط بين الاستجابات العصبية الانفعالية والرموز الثقافية، ضمن سياق زمني تراكمي يراعي تراكم الذاكرة الفردية والجماعية، بدل معالجتها كعناصر منفصلة.
3. "الاعتراف بالدور المركزي للانفعال واللاوعي الجمعي في تشكيل الانتماء المكاني": يُقر بأن الانجذاب أو النفور من الأماكن لا يُفسّر بالخصائص الفيزيائية وحدها، بل يتأسس على آليات شعورية خفية مرتبطة بالرموز والذاكرة المكبوتة، ما يفسّر ظواهر كالانجذاب اللاوعي لأماكن غير مألوفة أو شعور الاغتراب داخل فضاءات مألوفة ظاهرياً.
4. "دمج اللاوعي الرمزي والذاكرة المكانية المتراكمة": تتجاوز المقاربة الاقتصار على الرموز الظاهرة أو الدلالات الثقافية المباشرة، باستكشاف البُنى الرمزية الكامنة في

اللاوعي الجمعي، ورصد الطبقات الزمنية الشعورية المتراكمة داخل المكان، وهو بعد أهملته معظم المقاربات السابقة.

5. "المزج بين المعطيات الكمية والنوعية": يتيح توظيف أدوات القياس العصبي الحسي (مثل تتبع العين، تخطيط الدماغ EEG) بالتوازي مع التحليل التأويلي السردى للرموز والمعاني المكانية، ما يوفر قراءة متعددة الأبعاد تتجاوز الانفصال التقليدي بين التحليل الوضعي والتأويلي.

6. "التأكيد على المكان كحقل شعوري رمزي ديناميكي": يُعيد تعريف المكان ليس فقط كبنية مادية أو سياق ثقافي، بل كبنية شعورية متراكمة مشحونة برموز الجماعة الثقافية، وذاكرة مكانية انفعالية تعكس أثر الزمن والتجربة.

7. "قابلية التطبيق في سياقات ثقافية غير غربية": يراعي هذا الإطار الخصوصيات الثقافية والشعورية للمكان في السياقات العربية وغير العربية، مقدّمًا تصوّرًا يتجاوز النماذج المشتقة من تجارب حضرية أو ثقافية غربية، ما يعزز قدرته على قراءة الرمزية والانفعال ضمن بيئات متنوعة.

وبذلك يجمع الإطار بين العمق النظري والمرونة التطبيقية، ما يجعله مقترحًا مناسبًا لدراسة العلاقة المركبة بين الإنسان والمكان.

ويمثل هذا الإطار، في سياق الدراسات المكانية العربية، محاولة لبناء مقاربة تحليلية تراعي الخصوصيات الثقافية والشعورية للمكان، وتسهم في إثراء النقاش حول العلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان في المجتمعات غير الغربية.

وبذلك يترسخ كتصور إبستمولوجي يسعى إلى سد الفجوة بين مقاربات الإدراك الشعوري، الرمزية الثقافية، والتحليل العصبي الحسي، ضمن إطار تفسيري تكميلي قادر على مساءلة هذه العلاقة، ليس فقط من منظور فيزيائي أو وظيفي، بل من منظور شعوري رمزي عميق.

جدول : مقارنة خصائص المقاربة الإدراكية الرمزية بالمقاربات السابقة في تحليل العلاقة بين الإنسان والمكان:

الميزة / المقاربة	الظاهراتية	البنائية/السيمائية	الجغرافيا السلوكية
البعد التركيبي المتعدد المستويات	تركيز على البعد الفردى اللحظى	تركيز على البنى الدلالية المجردة	تركيز على الإدراك الواعى فقط
دمج الإدراك الحسى العصبى والرمزية	فصل الإدراك عن الرمزية	فصل الرمزية عن الحسية	لم يدمج بين الحسى والرمزى
الاعتراف بالانفعال واللاوعى الجمعى	تركيز على الشعور الفردى فقط	تجاهل اللاوعى والانفعال الجماعى	تجاهل الانفعال الجماعى
دمج اللاوعى الرمزى والذاكرة المكانية المتراكبة	لم يتناول اللاوعى الرمزى	لم يتناول الذاكرة المكانية المتراكبة	لم يتناول الذاكرة المتراكمة
المزج بين الكمي والنوعى	مقاربة كميّة فقط	مقاربة تأويلية فقط	مقاربة كمية سلوكية
المكان كحقل شعورى رمزى ديناميكى	اعتبر المكان تجربة شعورية	اعتبر المكان نصّا دلاليًا جامدًا	اعتبر المكان تمثيلًا إدراكيًا
القابلية للتطبيق في سياقات غير غربية	قابل جزئيًا (قابلية للتكيف نسبيًا)	قابل جزئيًا (نحتاج تأويل ثقافى)	قابل جزئيًا (بحاجة تكييف ثقافى)

الميزة / المقاربة	علم الأعصاب المعماري	الخرائط الانفعالية
البعد التركيبي المتعدد المستويات	تحليل وصفي منفصل	تحليل انفعالي جزئي
دمج الإدراك الحسي العصبي والرمزية	دمج جزئي غير ممنهج	غياب دمج واضح
الاعتراف بالانفعال واللاوعي الجمعي	لم يتناول اللاوعي الجمعي	جزئي (انفعالات فردية)
دمج اللاوعي الرمزي والذاكرة المكانية المتراكبة	لم يتناول البنى الرمزية العميقة	لم يتناول الذاكرة المكانية المتراكبة
المزج بين الكمي والنوعي	بيانات كمية فقط	مقاربة كيفية انفعالية
المكان كحقل شعوري رمزي ديناميكي	ركز على الإدراك العصبي	اعتبر المكان حقلاً انفعالياً فقط
القابلية للتطبيق في سياقات غير غربية	ضعيف (لم يُختبر خارج الغرب)	قابل جزئياً (تجارب محدودة)

الميزة / المقاربة	المقاربة الإدراكية الرمزية
البعد التركيبي المتعدد المستويات	يجمع بين الطبقات العصبية الحسية، الرمزية الثقافية، الشعورية الانفعالية، والذاكرة المكانية في إطار واحد
دمج الإدراك الحسي العصبي والرمزية	يقدم دمجاً متكاملًا بين الإدراك الحسي العصبي والرمزية الثقافية ضمن سياق زمني تراكمي
الاعتراف بالانفعال واللاوعي الجمعي	يعترف بالدور المركزي للانفعال واللاوعي الجمعي في تشكيل الانتماء المكاني
دمج اللاوعي الرمزي والذاكرة المكانية المتراكمة	يدمج اللاوعي الرمزي بالذاكرة المكانية المتراكمة ، مستكشفًا الطبقات الزمنية الشعورية المتراكمة داخل المكان
المزج بين الكمي والنوعي	يمزج بين المعطيات الكمية (مثل القياسات العصبية الحسية) والنوعية (التحليل التأويلي والسردية)
المكان كحقل شعوري رمزي ديناميكي	يعيد تعريف المكان كحقل شعوري رمزي ديناميكي مشحون بدلالات رمزية وانفعالية متراكمة
القابلية للتطبيق في سياقات غير غربية	يتيح التطبيق في سياقات ثقافية غير غربية، مع مراعاة الخصوصيات الشعورية والرمزية المحلية

2.3. المكونات التحليلية الأربعة للمقاربة الإدراكية الرمزية

بعد تقديم الإطار النظري والمنهجي وتعريف الخصائص المميزة للمقاربة الإدراكية الرمزية عن المقاربات السابقة، تقتضي هذه الدراسة تفصيل المكونات التحليلية الأربعة التي تشكل الدعائم الأساسية لهذه المقاربة. إذ تقوم على الربط الديناميكي بين الإدراك العصبي الحسي، الرمزية الثقافية، الإدراك العاطفي الحدسي، والذاكرة المكانية المترابطة للمكان، بوصفها مستويات متداخلة تؤثر العلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان في أبعادها الحسية، الشعورية، الرمزية، والزمنية.

ويتيح هذا التفكيك فهماً أعمق للكيفية التي تتفاعل بها الحواس، الرموز، الذاكرة، والانفعالات في إنتاج المعنى المكاني والانتماء الشعوري، بما يتجاوز المقاربات الاختزالية التي عالجت هذه الأبعاد بمعزل.

1.2.3. الإدراك العصبي الحسي (Sensory-Neural Perception)

ينطلق هذا المكون من فرضية أن العلاقة بالمكان ليست مجرد تمثيل معرفي بصري، بل تجربة إدراكية متجسدة تستثير أنظمة حسية وعصبية متعددة، بدءاً من الاستجابة البصرية ووصولاً إلى التنشيط العصبي المرتبط بالعاطفة والانتباه. وقد كشفت أبحاث علم الأعصاب المعماري (Eberhard, 2009; Goldhagen, 2017) أن التكوينات المعمارية والفضاءات العمرانية تحفز مناطق محددة في الدماغ مسؤولة عن الشعور بالراحة، الأمان، أو التهديد، مما يجعل التفاعل مع المكان محفوفاً بردود أفعال عصبية انفعالية تترك أثرها في الذاكرة الشعورية.

بهذا المعنى، يُعيد هذا الإطار الإدراكي الرمزي توسيع مفهوم الإدراك الحسي ليتجاوز حدود البصر، ليشمل اللمس، الصوت، الإيقاع الحركي، وحتى التجارب الحسية اللاواعية، باعتبارها عناصر تؤسس لبعد شعوري متراكم يُخزّن في الذاكرة الجسدية. وبشكل هذا المكون مدخلاً لتحليل كيف تُترجم الانطباعات العصبية الحسية إلى شعور بالمكان، وكيف تؤثر الهندسة المعمارية في الاستجابات الشعورية العميقة.

2.2.3. الرمزية الثقافية (Cultural Symbolism)

يُعنى هذا المكون بدراسة الرموز والدلالات الثقافية التي يحملها المكان، سواء أكانت ظاهرة في معالمه المادية أو متجسدة في ممارسات اجتماعية وشعائر جماعية. فالفضاء ليس محايداً ثقافياً؛ بل يُعاد إنتاجه باستمرار عبر منظومة من الرموز والعلامات التي تنقل معاني الانتماء، الهوية، السلطة، والذاكرة الجمعية.

يركز هذا الإطار الإدراكي الرمزي على استكشاف هذه الطبقات الرمزية، ليس بوصفها مجرد عناصر دلالية قابلة للتحليل اللغوي أو السيميائي، بل كبنى إدراكية تندمج مع الشعور الجسدي والانفعال، لتنتج إدراكاً رمزياً متجسداً يتجاوز الفصل التقليدي بين المعنى والوعي الحسي. ومن هنا، تصبح الرمزية الثقافية جزءاً من التجربة المعاشة، لا مجرد تأويل نظري للنص المكاني، بما يفسح المجال لتحليل كيف تُحمّل الأمكنة بمعانٍ تتجاوز وظائفها الفيزيائية.

3.2.3. الإدراك العاطفي الحدسي (Affective-Intuitive Perception)

يطرح هذا المكون فرضية أن الإنسان يكوّن ارتباطات شعورية خفية مع أماكن لم يزرها أو لم يعيش فيها مباشرة، استناداً إلى شبكات لاوعية من الرموز، المخيال، والتمثيلات المتراكمة عبر الذاكرة الفردية والجمعية. هذه الظاهرة، التي يمكن ربطها بمفاهيم كالديجافو المكاني (Déjà vu spatial) أو "الانجذاب اللاوعي"، تتحدى النماذج الإدراكية التي تشترط التجربة المباشرة لبناء الانتماء المكاني.

يتيح هذا المكون تحليل الظواهر التي تجعل بعض الأماكن مألوفة عاطفياً رغم غرابتها، أو تلك التي تثير شعوراً بالاعتراب رغم اعتياديتها الظاهرية، عبر استقصاء الآليات اللاوعية التي تشكّل هذه الاستجابات الشعورية. وبهذا المعنى، يفتح هذا الإطار الإدراكي الرمزي المجال لتحليل العلاقة بالمكان من منظور يتجاوز التجربة الحسية المباشرة، إلى التكوينات الشعورية الرمزية المسبقة.

4.2.3. الذاكرة المكانية المترابكة (Layered Spatial Memory)

ينطلق هذا المكون من اعتبار المكان ليس مجرد حيز فيزيائي أو سياق مكاني محايّد، بل كبنية زمانية تراكمية تخزن طبقات مترابكة من الذكريات، الرموز، والمشاعر، التي أعادت إنتاج دلالة الفضاء عبر الأجيال. يرتكز هذا المفهوم على فرضية أن إدراك المكان لا يتكوّن من خلال التفاعل اللحظي المباشر فحسب، بل يتشكل عبر تراكم طبقات متعددة من المعنى، تشمل الذاكرة الفردية، الرموز الثقافية، والتجارب التاريخية التي تُعيد باستمرار إنتاج الفضاء بوصفه حاملاً لمعاني جماعية متجددة.

وقد طُرِحَ هذا المفهوم في دراسة حديثة (زبيدي، قيد النشر)، في سياق نقدي لنماذج التحليل المكاني التي تكتفي بقراءة الفضاء من منظور وظيفي أو إدراكي مباشر، ويتقاطع هذا الطرح مع الأدبيات الكلاسيكية في علم الاجتماع والظاهراتية التي تؤكد أن الذاكرة الجماعية تتشكل داخل أطر مكانية مستقرة، وأن الفضاء يحمل آثار الجماعة ويعيد إنتاج معانيها عبر الزمن (Halbwachs, 1992; Casey, 1993). ومن هذا المنطلق، يدعو هذا التصور إلى اعتبار المكان حاملاً لبنية تراكمية من المعاني، تتفاعل فيها الشحنات الشعورية الخاصة بالفرد مع تمثيلات جمعية أعمق، متجذّرة في الخبرات المشتركة، والموروث الرمزي، والبنى الاجتماعية.

ومن هذا المنظور، تتجاوز الذاكرة المكانية المترابكة المفهوم التقليدي للذاكرة المكانية الذي يقصر التمثيل على مستوى إدراكي حسي مرتبط بالموقع أو الاتجاه، لتطرح قراءة تأويلية تُعيد الاعتبار للبعد الزمني والرمزي للفضاء. فكل مكان، وفقاً لهذا التصور، يحمل في طياته طبقات مترابكة من الدلالة، تشكّلت بفعل التفاعل المستمر بين البنى الاجتماعية والثقافية، والتجارب الشعورية للفرد والمجتمع.

ويكتسب هذا المفهوم أهمية خاصة في تحليل الأمكنة ذات القيمة التاريخية أو الطابع الطقسي أو الهوياتي، حيث تظهر بوضوح ملامح التراكم الرمزي والدلالي، ويُعاد إنتاج الانتماء من خلال استحضار الماضي في الحاضر، سواء عبر المعمار، أو الممارسات الجماعية، أو الشعور الغريزي بالارتباط المكاني.

بهذا المعنى، يسعى هذا الإطار الإدراكي الرمزي، من خلال مكون الذاكرة المكانية المترابكة، إلى إدخال البعد الزمني الرمزي ضمن بنية الإدراك، بما يُتيح فهمًا أكثر تعقيداً للعلاقة بين

الإنسان والفضاء، ويُمدّد لتطويع أطر تحليلية متعددة التخصصات تربط بين الجغرافيا السلوكية، علم النفس المكاني، والدراسات الثقافية. ومن خلال هذه المقاربة، يُعاد تعريف المكان كحقل شعوري زمني رمزي، تُخترن فيه الذكريات الفردية والجماعية، وتتداخل طبقاته في تشكيل الانتماء، الانجذاب، أو النفور، في الحاضر.

وباستكمال هذه المكونات الأربعة، يقدّم هذا الإطار الإدراكي الرمزي تصوّرًا تحليليًا متكاملًا يعيد صياغة العلاقة بين الإنسان والمكان ضمن رؤية تركيبية متعددة الأبعاد، ويمهّد الطريق نحو استكشاف إمكاناته التطبيقية في تفسير الظواهر المكانية وتحليل الانتماء المكاني في سياقات عمرانية وثقافية متباينة، كما سيتضح في المحور التالي.

4. آفاق المقاربة الإدراكية الرمزية وتطبيقاتها المستقبلية

بعد بناء الإطار النظري وتحديد المكونات التحليلية الأربعة للمقاربة الإدراكية الرمزية، تبرز الحاجة إلى استكشاف إمكانات هذه المقاربة على الصعيد التطبيقي، وبيان قدرتها على تفسير الظواهر المكانية المعقدة، وتحليل أنماط الانتماء والانجذاب والاغتراب ضمن بيئات عمرانية وثقافية متباينة.

إن الطبيعة التركيبية لهذه المقاربة، القائمة على الربط بين الإدراك العصبي الحسي، الرمزية الثقافية، الإدراك العاطفي الحدسي، والذاكرة المكانية المتراكبة، تفتح أفقًا واسعًا أمام تطبيقات متنوعة في مجالات تخطيط المدن، صون التراث العمراني، التصميم المعماري، والدراسات الثقافية.

يهدف هذا المحور إلى استعراض هذه التطبيقات من خلال ثلاث زوايا رئيسية: تحليل المدن القديمة والمدن الحديثة، تفسير ظواهر الانجذاب غير المفهّر والديجافو المكاني، وتحديد حدود البحث وآفاق تطويره.

1.4. تطبيقات على المدن القديمة والمدن الحديثة

تمثّل المقاربة الإدراكية الرمزية أداة تحليلية واعدة لفهم العلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان في كل من المدن القديمة والمدن الحديثة، بالنظر إلى تعدد الطبقات الزمنية والرمزية التي تُكوّن هذه الفضاءات. ففي المدن القديمة، التي تحتضن تراكبات تاريخية

ومعمارية وشعائرية متراكبة، تُتيح هذه المقاربة تفكيك الكيفية التي تتفاعل بها الذاكرة المكانية المتراكبة مع الرمزية الثقافية لتوليد شعور بالانتماء أو قداسة المكان، وكيف تُعيد الجماعات إنتاج معاني الفضاء عبر ممارسات الطقوس، الترميم، أو التخيل الجماعي. في هذا السياق، يمكن توظيف المقاربة الإدراكية الرمزية لفهم كيفية "إحياء الرمزية" ضمن مشاريع إعادة تأهيل التراث العمراني، من خلال تتبع الطبقات الشعورية الرمزية الكامنة في الذاكرة الجمعية، والتعامل مع المعمار ليس فقط كبنية مادية، بل كحامل لمعاني متراكمة. كما يُمكن استخدامه لتحليل أثر الانفعالات الجماعية المرتبطة بمواقع محددة، ما يساعد المخططين والمصممين على احترام البعد الوجداني للمكان ضمن مقاربات التنمية الحضرية المستدامة.

أما في المدن الحديثة، التي تتسم أحياناً بهشاشة الرموز وضعف الذاكرة الجمعية، فإن المقاربة الإدراكية الرمزية تفتح مجالاً لدراسة "فراغ الرمزية" وتأثيره على شعور الاغتراب أو فقدان الانتماء، من خلال تحليل غياب الطبقات الدلالية أو تفككها داخل البيئات العمرانية المعاصرة.

يمكن أيضاً توظيف هذه المقاربة لفهم أسباب الانجذاب غير المفسّر لبعض الأماكن الحديثة رغم حداثة الظاهريّة، باستقصاء دور الإدراك العاطفي الحدسي في بناء ارتباط غير واعٍ بإمكانة لم تخضع بعد لتراكم زمني طويل.

وبهذا، توفر هذه المقاربة أداة تحليلية قادرة على المقارنة بين الفضاءات ذات الذاكرة المتراكمة وتلك ذات الذاكرة الهشة أو الناقصة، ما يُسهم في تصميم استراتيجيات معمارية وتخطيطية تُراعي إعادة بناء الرمزية، أو استحداث "رموز مكانية" جديدة تعزّز شعور الانتماء لدى ساكني المدن الحديثة.

2.4. تفسير ظواهر الشعور المكاني المركب: الديجا فو، الانجذاب، الحنين، والاغتراب الحصري

تفتح المقاربة الإدراكية الرمزية أفقاً جديداً لفهم وتفسير ظواهر شعورية غامضة طالما حيرت الباحثين، كـ الديجا فو المكاني، الانجذاب غير المفسر نحو أماكن لم تُختبر مسبقاً،

أو حتى شعور الحنين غير المفهوم والاغتراب الحضري الذي قد يعانيه الأفراد داخل بيئات مألوفة ظاهريًا.

إذ تطرح هذه المقاربة فرضية أن هذه الظواهر ليست مجرد أحداث عصبية معزولة، أو انطباعات شعورية عابرة، بل نتيجة تفاعل مركب بين الذاكرة المكانية المتراكبة، الرمزية الثقافية، والإدراك العاطفي الحدسي، ضمن بنية إدراكية رمزية متعددة المستويات. من هذا المنظور، يمكن تفسير الديجا فو المكاني بوصفه استرجاعًا لا واعيًا لطبقة رمزية أو شعورية مختزنة في الذاكرة الجمعية أو اللاوعي الثقافي، ترتبط بمكان يحمل سمات رمزية أو معمارية مشابهة لمخزون سابق، حتى وإن لم يسبق للفرد زيارته أو معاشته مباشرة. وبالمثل، يُقارب شعور الحنين غير المفهوم على أنه انبعاث لا وعٍ لطبقة رمزية كامنة، تستدعي شعورًا بالارتباط أو الشوق تجاه فضاء لم يُختبر ماديًا، لكنه مشحون بدلالات ثقافية أو خيالية في الذاكرة الجمعية أو الفردية.

أما ظاهرة الاغتراب الحضري، فيُنظر إليها كتعبير عن انفصال شعوري رمزي بين الإنسان والبيئة المبنية، نتيجة ضعف الدلالة الرمزية أو تفككها، أو غياب الطبقات الشعورية التراكمية التي تولّد شعور الانتماء. ويُفهم الاغتراب الحضري، وفق الأدبيات السوسيولوجية، بوصفه حالة انفصال شعوري بين الفرد وبيئته الحضرية نتيجة ضعف الروابط الرمزية والاجتماعية (Relph, 1976; Seamon, 2014).

بهذا المعنى، تصبح هذه الظواهر إشارات إلى تفاعل شعوري رمزي يتجاوز الإدراك الحسي المباشر، ويستدعي مستويات لاواعية من الانتماء الرمزي أو الجمالي أو التاريخي. تقدم هذه المقاربة إطارًا تحليليًا لفهم لماذا قد يشعر الفرد بالألفة العاطفية أو النفور الشعوري تجاه أماكن لم يختبرها من قبل، بناءً على رموزها، أو طابعها المعماري، أو موقعها الثقافي ضمن الذاكرة الجمعية. كما تفتح إمكانيات تطبيقية لتحليل قرارات الزيارة، الاستقرار، أو الهجرة، في ضوء الانجذاب، الاغتراب الحضري، أو الحنين غير المفسر للفضاءات.

3.4. حدود البحث و آفاق التطوير

على الرغم من الأفق النظري الواسع الذي تفتحه المقاربة الإدراكية الرمزية لتحليل المكان، إلا أن هذا الطرح لا يخلو من تحديات منهجية وتطبيقية تفرضها طبيعته التركيبية متعددة المستويات.

تتمثل أبرز هذه التحديات في صعوبة التحقق التجريبي المباشر لبعض مكوناته، خاصة تلك المرتبطة بالإدراك العاطفي الحدسي واللاوعي الرمزي، نظراً لاعتمادها على عمليات إدراكية وشعورية يصعب قياسها بأدوات كمية تقليدية.

كما تواجه محاولات تطبيق هذه المقاربة في الدراسات الميدانية تحدياً إضافياً يتمثل في ضرورة الجمع بين أدوات متعددة من تخصصات مختلفة (كالأعصاب، الجغرافيا، الأنثروبولوجيا، علم النفس الثقافي)، مما يتطلب بناء فرق بحثية متعددة التخصصات، وتطوير بروتوكولات مشتركة للقياس والتحليل.

من ناحية أخرى، قد يثير هذا الطرح تساؤلات نقدية حول درجة تعميم نتائجه عبر ثقافات متنوعة، خاصة وأن جزءاً من الرموز والمعاني المكانية المستهدفة بالتفسير يحمل طابعاً محلياً أو مقيداً بسياق ثقافي محدد.

ولعل هذا ما يستدعي في المستقبل تطوير مقاربات مقارنة، تدرس كيفية تباين الطبقات الرمزية والشعورية للمكان بين ثقافات مختلفة، دون الوقوع في فخ النماذج الاختزالية أو الانطباعات المعيارية.

في ضوء هذه الحدود، تبرز عدة آفاق لتطوير هذه المقاربة، من بينها:

- توسيع أدوات القياس: كإدراج تطبيقات جديدة في علم الأعصاب المعماري (تصوير الدماغ الوظيفي أثناء التعرض لمحفزات مكانية رمزية)، وتقنيات تتبع الانفعال الحي (Biometric emotion tracking)، لدراسة الاستجابات الشعورية للمكان في الزمن الحقيقي.
- إدماج تقنيات التحليل المكاني الرقمي: كنظم المعلومات الجغرافية المدمجة بالبيانات السلوكية والشعورية (GIS + emotional mapping)، لتطوير نماذج خرائطية تعبر عن التفاعل الشعوري الرمزي مع الفضاءات.

وفي هذا الإطار، يمكن إدراج أدوات "الخرائطية العاطفية" (Emotional Cartography) كآلية تطبيقية مرئية تُترجم المكونات الأربعة للمقاربة الإدراكية الرمزية إلى تمثيلات مكانية قابلة للرصد والتحليل، مما يعزز التكامل بين البُعد النظري والبُعد البصري في قراءة العلاقة بين الإنسان والمكان.

- استكشاف إمكانيات التطبيق في التصميم الحضري، السياحة الثقافية، إعادة تأهيل الفضاءات التاريخية، عبر توظيف مخرجات هذه المقاربة في صياغة استراتيجيات أكثر حساسية للانتماء الشعوري والذاكرة الجماعية.

وفي سياق تعزيز الطابع التطبيقي لهذه المقاربة، يمكن اقتراح بروتوكول مبدئي يترجم مكوناتها النظرية إلى خطوات عملية قابلة للاستعمال في الدراسات الميدانية. تبدأ هذه الآلية بتحديد فضاء مكاني يحظى بأهمية شعورية أو رمزية لدى مجموعة معينة، سواء كان موقعاً ذا طابع تاريخي أو فضاءً حضرياً معاصراً يثير استجابات شعورية خاصة. يلي ذلك جمع البيانات المتعلقة بالإدراك العصبي الحسي من خلال استبيانات شعورية، أو أدوات القياس الحسي المباشر، مثل تتبع الحركة البصرية أو استجابات البشرة الكهربائية، لدراسة كيفية استقبال الأفراد للمثيرات الحسية للمكان (كالإضاءة، الأصوات، الروائح، الألوان).

بعد ذلك، يجري استقصاء الرمزية الثقافية للمكان عبر تحليل الروايات الشفوية، الرموز البصرية، الطقوس، والممارسات الثقافية المرتبطة به، بهدف بناء خريطة رمزية للمكان تعبر عن معانيه الثقافية والاجتماعية. في خطوة تالية، يُستقصى الإدراك العاطفي الحدسي من خلال مقابلات مفتوحة أو شهادات شخصية تستجلي المشاعر العفوية أو الانطباعات الحدسية أو تجارب الألفة الغامضة تجاه الفضاء، بوصفها مؤشرات على التفاعل الشعوري اللاواعي مع الرموز المكانية.

وأخيراً، تُستكمل الآلية بإعادة بناء الذاكرة المكانية المتراكمة من خلال رسم خطوط زمنية أو طبقات شعورية رمزية تعكس تراكم الخبرات الجماعية والتاريخية المتصلة بالمكان. بما يُتيح تصوّراً مركباً للعلاقة بين الإنسان والمكان يتجاوز المستويات الفيزيائية إلى المستويات الرمزية والشعورية المتعددة. ومن خلال هذه الخطوات، يُمكن لهذا البروتوكول المقترح أن

يشكل إطارًا عمليًا مبدئيًا يسمح بترجمة المقاربة الإدراكية الرمزية إلى أداة تحليلية تطبيقية، قابلة للتطوير وفق خصوصيات كل سياق ثقافي أو عمراني.

ختامًا، تقدم المقاربة الإدراكية الرمزية، رغم كونها لا تزال في طور التطوير، تصورًا إبستمولوجيًا مفتوحًا يطمح إلى إعادة صياغة العلاقة بين الإنسان والمكان خارج الحدود الاختزالية التقليدية، نحو قراءة متعددة المستويات تُنصف التفاعل المعقد بين الحواس، الرموز، الذاكرة، والانفعالات.

5. خاتمة:

يلخص هذا البحث الخطوط العريضة للمقاربة الإدراكية الرمزية لتحليل المكان، بوصفه إطارًا تركيبياً يجمع بين الإدراك العصبي الحسي، الرمزية الثقافية، الإدراك العاطفي الحدسي، والذاكرة المكانية المتراكبة. وقد أوضحت الدراسة كيف يمكن لهذه المقاربة تجاوز المقاربات التقليدية في تحليل العلاقة بين الإنسان والمكان، من خلال دمج الطبقات الحسية، الشعورية، الرمزية، والزمنية في رؤية متعددة المستويات.

رغم الإمكانيات النظرية الغنية لهذا الطرح، لا يخلو من تحديات تطبيقية وتحليلية تستدعي مزيدًا من البحث التطبيقي والمقارن. تفتح هذه المقاربة آفاقًا مستقبلية لتطوير أدوات بحثية جديدة، وتعزيز التكامل بين العلوم المعرفية، الدراسات الثقافية، وتحليل الفضاءات العمرانية، مع إمكانية تطبيقه في مجالات عملية كالتخطيط الحضري، الحفاظ على التراث، والتصميم المعماري. وإذ يظل هذا التصور مفتوحًا للتطوير، فإنه يقدم إسهامًا أوليًا في إعادة التفكير بالعلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان، بوصفها ظاهرة تستدعي باستمرار المراجعة النقدية والابتكار التحليلي، في سياقات ثقافية متباينة ومتغيرة.

6. قائمة المراجع:

باشلار، غاستون. (1958) *جماليات المكان*، ترجمة: غالب هلسا. بيروت: المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، ص 9-15، 23-30، 31-34.



دريدا، جاك. (2018) *في علم الكتابة*، ترجمة: أنور مغيث ومنى طلبه. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ص 45-54.

زيدي، عبد الحكيم. (قيد النشر، 2026). "الانتماء غير المفسّر: قراءة علمية في الجاذبية الخفية للأمكنة"، *مجلة الفيصل*.

Anderson, Ben. *Affective Atmospheres. Emotion, Space and Society*, Vol. 2, No. 2, 2009, pp. 77-81.

Bachelard, Gaston. *La formation de l'esprit scientifique: Contribution à une psychanalyse de la connaissance objective*. Paris: Vrin, 1938 (nouvelle édition 2011), p. 250.

Barthes, Roland. *Mythologies*. Paris: Éditions du Seuil, 1957, pp. 215-248.

Barthes, Roland. "Éléments de sémiologie", *Communications*, no. 4 (1964): 91-135.

Bourdieu, Pierre. *Language and Symbolic Power*. Edited by John B. Thompson. Cambridge: Polity Press, 1991, pp. 43-65, 107-116.

Caquard, Sébastien, and Amy L. Griffin. "Mapping Emotional Cartography", *Cartographic Perspectives*, no. 91 (2018): 4-16.

Casey, Edward S. *Getting Back into Place: Toward a Renewed Understanding of the Place-World*. Bloomington: Indiana University Press, 1993, pp. 181-252.

Eberhard, John P. *Brain Landscape: The Coexistence of Neuroscience and Architecture*. Oxford: Oxford University Press, 2009, pp. 4-8, 12-14, 18, 85-91.

Fotheringham, A. Stewart, Chris Brunson, and Martin Charlton. *Quantitative Geography: Perspectives on Spatial Data Analysis*. London: Sage Publications, 2000.

Foucault, Michel. "Des espaces autres", *Architecture, Mouvement, Continuité*, no. 5 (1984): 46–49.

Goldhagen, Sarah Williams. *Welcome to Your World: How the Built Environment Shapes Our Lives*. New York: Harper, 2017, pp. 16–20, 25–29, 29–33.

Halbwachs, Maurice. *The Collective Memory*. New York: Harper & Row, 1992, pp. 140–145.

Heidegger, Martin. *Being and Time*, trans. John Macquarrie and Edward Robinson. Oxford: Basil Blackwell, 1962, §23, p. 138.

Husserl, Edmund. *Ideas Pertaining to a Pure Phenomenology and to a Phenomenological Philosophy*, First Book, trans. Fred Kersten. The Hague: Martinus Nijhoff Publishers, 1983, §44, pp. 94–98.

Hussey, Edward. *Aristotle's Physics: Books III and IV*. Oxford: Clarendon Press, 1983, Book IV, Chapter 4, p. 122.

Lefebvre, Henri. *The Production of Space*, trans. Donald Nicholson-Smith. Oxford: Blackwell, 1991, pp. 36, 46.

Longley, Paul A., Michael F. Goodchild, David J. Maguire, and David W. Rhind. *Geographic Information Science and Systems*, 4th ed. Chichester: Wiley, 2015, p. 6.

Lynch, Kevin. *The Image of the City*. Cambridge, MA: MIT Press, 1960, pp. 46–48.

Merleau-Ponty, Maurice. *Phenomenology of Perception*. London: Routledge, 1962 (first published 1945).

Montello, Daniel R. "Spatial Cognition." In *International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences*, ed. Neil J. Smelser and Paul B. Baltes. Oxford: Elsevier, 2001, pp. 14771–14775.

Pile, Steve. Emotions and Affect in Recent Human Geography. *Transactions of the Institute of British Geographers*, Vol. 35, No. 1, 2010, pp. 5–20.

Plato. *Timaeus*. In: John M. Cooper (ed.), *Plato: Complete Works*, trans. Donald J. Zeyl. Indianapolis: Hackett Publishing Company, 1997, pp. 1224–1291.

Proshansky, Harold M., Fabian, Abbe K., and Kaminoff, Robert. Place-Identity: Physical World Socialization of the Self. *Journal of Environmental Psychology*, Vol. 3, No. 1, 1983, pp. 57–83.

Relph, Edward. *Place and Placelessness*. London: Pion, 1976, pp. 4–5, 10–12, 36–39.

Saussure, Ferdinand de. *Course in General Linguistics*, ed. Charles Bally and Albert Sechehaye, trans. Wade Baskin. New York: Philosophical Library, 1959, pp. 114–117.

Seamon, David. "Place Attachment and Phenomenology." In *Place Attachment*, ed. Lynne C. Manzo and Patrick Devine-Wright. New York: Routledge, 2014, pp. 13–25.

Thrift, Nigel. *Non-Representational Theory: Space, Politics, Affect*. London: Routledge, 2008.

Tuan, Yi-Fu. *Topophilia: A Study of Environmental Perception, Attitudes, and Values*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1974, pp. 92–115.

Tuan, Yi-Fu. *Space and Place: The Perspective of Experience*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1977, pp. 5–9, 136–150.